المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثامن والاربعين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٩١٦ — الموافق ٢٨ جمادى الاولى سنة ١٣٣٤

الحياة والمادة في حرب [1]

وهي خطبة الفيلسوف الفرنسوي هنري برغصن Henri Bergson رئيس اكادمية العلوم الادبية والسياسية بباريس تلاها في اجتماعها السنوي في ١٢ دسمبر ١٩١٤

قيل ان الفلسفة تقول للمرء "Comprendre et ne pas s'indigner" اي « تبصَّر ولا تغتظ » اما انا فاخالفها في ذلك واذا رأيت الجرائم تُرتكب وخُيّرت فيما افعل فاني افضّل ان اطلق لغيظي العنان ولا اتبصَّر . ومع ذلك فلسنا مخيَّرين بل نحن مدفوعون للغيظ لان بعض ضروبهِ اذا تبصَّر المرء في مرماها زادت قوةً وتجدَّدت سورتها . وغيظنا من هذا النوع فاننا اذا امعنا النظر في مرامي هذه الحرب زدنا حنقاً من مثيريها . ولا اسهل من اثبات ذلك كما سيجيء

عكفت المانيا على الشعر والفلسفة منذ زمن طويل مدَّعية انها خُلقت للفكر والخيال ولا تهمها حقائق الاشياء . ثم ان ادارتها كانت مختلَّة وانها كانت مقسومة ممالك متناظرة متخاذلة حتى خيف من انتشار الفوضى فيها بعض الاحيان انتشاراً لا قامع لهُ . ولكن الناقد البصير كان يرى تحت هذا الاختلال الظاهر شجرة الحياة التي تكون دائماً في اولها غضة كثيرة الفروع ثم تُشذَّب وتُهذَّب حتى تصير في الشكل الذي يراد بقاؤُها فيهِ . فكان من المنتظر ان تتولَّد من مجالسها البلدية ادارة حسنة تضمن النظام ولا تنفي الحرية وان ينشأ من اتحاد ممالكها المتحالفة ما يسمَّى باتفاق المتحالفات الذي هو اكبر مميز للاجسام الحيَّة . ولكن هذا

(١) هو هنري لويس برغصن استاذ الفلسفة في كلية فرنسا واحد اعضاء الانستتو ولد سنة ١٨٥٩ ولعلهُ اشهر فلاسفة فرنسا الآن ولهُ من المؤلفات المشهورة كتاب الزمن والارادة الحرة وكتاب المادة والذاكرة وكتاب النشوء المبدع

الامر لا يتم في يوم او يومين بل لا بدَّ لهُ من زمن كافٍ كما هي الحال في سائر الاحياء اذا اريد ان تعمل كل ما هو مقدور لها من الاعمال

لما كانت المانيا جارية في تكوين وحدتها كمجموع حي كان فيها او فيما يليها اناس شأنهم تحويل كل شيءٍ الى صورة صناعية . وهذا كان شأن مملكة بروسيا في تكوُّنها فانها تكوَّنت بضم بعض الولايات المأخوذة بالغلب او بالكسب ضمًّا صناعيًّا كأنها قطع ثوب خيط بعضها ببعض فكانت ادارتها صناعية آليَّة وجرت في اعمالها مجرى الآلات في دقتها وانتظامها . ومثلها صار جيشها الذي كان مطمح انظار ملوكها من آل هوهنزلرن . ومما لا ريب فيهِ ان الناظر الى بروسيا يرى في اعمال اهلها وتصرفاتهم من التدقيق والسير على خطط معلومة محدودة ما يدلُّ على انهم آلات صماء متحركة وذلك من اشارات ملوكهم الى خطوات جنودهم إما لانهم تمرَّنوا على الطاعة العمياء قروناً عديدة او لان محبة الغلب والنهب المغروسة فيهم استولت على حياة الامَّة وحوَّلت انظارها ومطالبها الى ما هو مادي محض

وجاء يوم وقفت فيهِ المانيا بين امرين تختار واحداً منها إما الوحدة الصناعية الميكانيكية التي فُرضت عليها فرضاً من الخارج واما الوحدة الحيوية الطبيعيَّة التي تولّدها الحياة من الداخل . وكان عليها ان تختار لكل حالة من هاتين الحالتين الادارة التي تناسبها إما الادارة الصناعية المقيَّدة بما فيها من الانتظام التام ولو كانت خالية من التجدُّد الحيوي مثل كل نظام صناعي وإما الادارة الطبيعيَّة الحرة التي ينشئها الناس الاحرار اذا اتَّفقوا بمقتضى ارادتهم من غير اكراه . فايهما اختارت ؟

كان في المانيا حينئذٍ رجل تجسَّمت فيهِ روح بروسيا . رجل نابغة ولا شك ولكنهُ نابغة في الشر لانهُ كان بلا ضمير ولا ايمان ولا محبة . ازال الغما من ميلهِ لئلاَّ تفسد عليهِ الغرض الذي كان يسعى اليهِ . ثم قال لنفسهِ اننا عازمون ان نجعل المانيا تتمتع مع بروسيا بكل ما تتمناهُ وتطمع فيهِ فاذا تردَّدت عن اجابة طلبنا لان شعبها لم يشأ ان يعمل بما نقول باختيارهِ فاني اعرف كيف اضطرهُ لذلك ازجُّ بهِ في حرب عوان في منازلة عدو لنا كنا عدو خدعناهُ وتربصنا بهِ نوائب الدهر وسنأخذهُ على غرَّة وحينما ينفخ في بوق الظفر اقوم واجعل المانيا تؤالي على نفسها وهي سكرى بخمرتهِ ان لا تغمد الحسام حتى تنال كل اطايب الارض

قال وفعل وآلت المانيا على نفسها ان تفعل بقولهِ ثم اوجب عليها ان لا تخلع سلاحها عنها لكي لا تنكث بعهدها . ومن اقوالهِ التي رواها عنهُ اخصاؤهُ قولهُ « اننا لم نأخذ من النمسا شيئاً بعد معركة سادوى لكي نستطيع ان نصالحها يوماً ما » وعليهِ فقد اخذ من فرنسا

الالزاس وجانباً من اللورين لكي لا يبقى مجال للصلح بينها وبين المانيا قاصداً ان لا يبرح من بال الالمان انهم في خطر دائم من الحرب فيجب عليهم ان يغوصوا في سلاحهم ولا يخلعوهُ ابداً اي يجب على المانيا ان تعضد بروسيا في مقاصدها الحربية وفي التأهب الدائم للحرب بدلاً من ان يكون انضمامها اليها واسطة لتقويتها واستغنائها عن الحرب

ثم انضمت المانيا الى بروسيا فتألفت من ذلك قوة حربيَّة زادت منعةً سنة بعد سنة لكنها تخطت الحدود التي قدرها لها بسمارك وحدث في امرها ما حدث في امر الساحر الذي يقال انهُ استحضر جنيَّة وعزَّم عليها حتى تأتيهُ بدلو ماء تفرغهُ في بيتهِ وهو لا يعرف كيف يصرفها فظلت تجلب الماء وتفرغهُ حتى اغرقتهُ

نظَّم ملوك بروسيا جنودهم ومرَّنوها واعتنوا بها حتى صارت عنوان الكمال في حسن نظامها وتدربها وغرَضهم من ذلك ان يجعلوها آلة لنيل مآربهم وهو اجتياح ما يملكهُ جيرانهم من الاراضي لان الناس قلما كانوا يملكون شيئاً آخر فكانت ثروة الانسان تقدر بما يملكهُ من الارض . ولكن لما جاء القرن التاسع عشر واستخدم الناس العلوم الطبيعيَّة لمنافعهم المادية فارتقت الصناعة واتسعت التجارة صار للثروة وجوه اخرى . ثم لما وضعت الحرب اوزارها سنة ١٨٧٠ رأت المانيا وهي طامعة بنظرها الى امتلاك خيرات العالم ان لا بدَّ لها من ان تصير صناعية تجارية وهذا لا يستلزم ان تغيّر اساليبها من حيث التدقيق والتنظيم والاستطلاع بل يدعوها لان تزيد استمساكاً بها وتضيف اليها الغطرسة والجاسوسية اللتين هما دعامة قوتها الحربية . فتتأهب بالصناعة والتجارة وقوتهما لا تقلّ عن قوة جيشها وتغزو بهِ وبهما ممالك الارض

ومن ثمَّ جعل جيشها وصناعتها يسيران جنباً لجنب متعاضدين الجيش الذي تجسَّم فيهِ حب الفتح والظفر ومعهُ البوارج الحربية المكمّلة لهُ . والصناعة التي جاءت منقادة الى حب الفتح . نمت الصناعة الالمانية واينعت من كل الوجوه ولكنها لم تنحرف عن غايتها الحربية . فأنشئت معامل كبيرة لم يرَ العالم لها مثيلاً ضمّت الوفاً من العمَّال وعملهم سبك المدافع والى جانبهم عمَّال آخرون انتحلوا كل اختراع اخترعهُ ذكاء الامم المجاورة وحولوهُ عن غايتهِ النافعة وجعلوهُ آلة للحرب والدمار . فزاد الجيش والاسطول قوةً ومنعةً بزيادة الثروة الناتجة من نمو الصناعة والتجارة ناوفيا الثروة ما انفقتهُ عليهما بان وقفا طوع امرها وجعلا يفتحان السبل والاسواق للصناعة والتجارة . ولكن هذا المجموع الكبير المركَّب من الصناعة والتجارة والجيش والاسطول الذي سار سيراً حثيثاً بضغط ملوك بروسيا عليهِ وضغط بروسيا على المانيا فزادت

سرعتهُ بالاستقرار كان لا بدَّ لهُ من ان ينحرف عن جادتهِ لشدَّة سرعتهِ فيخرج عن كل قيد ويتدهور الى الهلاك

ان الرغبة في الفتح والظفر لا تشبع ولكنها تضطر ان تقف عند حد ما اذا اقتصر صاحبها على تملك بلاد جيرانهِ . فلما رغب ملوك بروسيا في توسيع ملكهم اضطروا ان يحاربوا جيرانهم حروباً متوالية ولكن الواحد منهم لم يستطع ان يغتصب في الحرب الواحدة اكثر من ولاية او ولايتين لقلة ذات يدهِ ولكن لما اتسعت الثروة لم يعد للرغبة في الفتح حد تقف عندهُ فاجتمعت المطامع التي كانت تظهر آونة بعد اخرى لان الاحوال لم تسمح ظهورها في وقت واحد — اجتمعت معاً على غرض غير محدود كما انها هي غير محدودة . فحيثما وُجدت مواد للصناعة ومرافئ لاصلاح السفن وامتيازات لذوي الاموال واسواق للبضائع التجارية فهناك ادَّعت المانيا ان لها حقوقاً مقررة . والواقع ان السياسة التي افادت بروسيا وآلت الى ارتقائها انتقلت دفعةً واحدة من التقدير والتدقيق الى التقحم والتهور . فان بسمارك الذي قادهُ عقلهُ الى وضع القيود لمطامعهِ كان خصماً للاستعمار وقد قال ان كل مصالح الشرق لا تساوي عظام جندي من الحرس البومراني . ولكن المانيا سارت على الخطة الاولى التي اختطها لها ثم اندفعت فيها لا تلوي على شيء ضاربة شرقاً وغرباً حيث لا تجد مقاومة كبيرة قاصدة ممالك الشرق ومملكة البحار فاثارت بفعلها هذا الحرب على الامم التي تمكّن بسمارك من محالفتها او مصادقتها ووضعت نصب عينيها سيادة المسكونة كلها

ولم يكن عند المانيا وازع ادبي يضع حدَّاً لمطامعها فلما سكرت بخمرة الظفر وبما وصلت اليهِ من المجد والسؤدد بظفرها وبما جنتهُ علومها وفنونها من هذا الظفر رأت من النجاح المادي ما لم تعرفهُ من قبل ولا حلمت بهِ ولا خطر على بالها فقالت " ان كانت القوة قد انجبت هذه النتائج واتاحت الثروة والعزة ففيها سرٌّ خفي وجوهر روحاني . وان القوة الوحشية وما يتبعها من الحيل والاخاديع اذا امتزجت بمهارة كافية للتغلب على العالم فهي منحة من الله ووحي الهي منهُ . والشعب الذي اعطي هذه القوة هو شعب الله المختار وغيرهُ من الشعوب عبيد لهُ فلا يحرَّم عليهِ شيء يؤول الى تعزيز سلطتهِ . لا يقولنَّ احدٌ ان الحق لا يُهضَم فما الحق الاَّ ما يتفق الناس عليهِ والاتفاق لا يكون الاَّ حسب مشيئة الغالب اي حسب ما تدعمهُ قوتهُ . فالقوة والحق سيَّان فاذا شاءت القوة ان تسير في خطة جديدة صار الحق القديم في خبر كان وصار الاتفاق السابق قصاصة ورق " . ولما رأت المانيا ما ادهشها من فوز قوتها الوحشيَّة وما ترتب على فوزها من النجاح المادي حركت دهشتها هذه الوقَّاً من العوامل

النفسيَّة بجاءتها متسارعة من كل صوب عوامل وآمال كانت في نفوس شعرائها وفلاسفتها — في نفس كل من يستطيع ان يقنعها بصحة ما صممت عليهِ ولو خداعاً فصارت اغراض المانيا مذهباً فلسفياً نادى بهِ الاساتذة في المدارس والجامعات فانطبعت بهِ الامة وما اسهل ما انطبعت بعد ان أَلِفت الانقياد الاعمى · ولم يكن لها غرض اسمى منهُ تقاوم بهِ اغراض اهل الحل والربط

ولقد قال كثيرون ان سياسة المانيا مبنيَّة على هذا المذهب وعندي انها فلسفة تحوّل الطمع الاشعبي والارادة التي اعمتها الخيلاء الى ما تزعمهُ اغراضاً سامية · وهذا المذهب نتيجة لا سبب · وسيأتي وقت حينما ترى المانيا ما اصابها بسببهِ من الخطة الادبيَّة فتقول معتذرة انها افرطت في ثقتها ببعض التعاليم النظرية وان الخطأ في الحكم ليس جريمة · فيقال لها حينئذٍ ان فلسفتها لم تكن سوى طريقة للتعبير بالفاظ فلسفيَّة عن توحشها وجشعها وقبائحها · وهذا شأن اكثر الناس فان ما يعدّونهُ مذهباً لهم إنْ هو الاَّ اساليب يعبّرون بها عن احوالهم واعمالهم · فانهُ لما صارت المانيا دولة الغزو والنهب استشهدت على صحة عملها بالفيلسوف هيجل كما تستشهد على محبتها للجمال الادبي بالفيلسوف كانت وعلى رقة قلبها بجاكوبي وشوبنهور · واذا كان لها ميل آخر ولم تجد بين فلاسفتها من تستشهد بهِ وتستند اليهِ استشهدت بفيلسوف اجنبي · فانها لما ارادت ان تقنع نفسها بان مستقبل الامم مقدور لهم استشهدت بكاتب فرنسوي وعدَّتهُ بين المشاهير ولو كنا نحن لا نسلم لهُ بهذه الشهرة وهو غوبينو

ولكن متى صار الطمع القبيح مذهباً سهل عليهِ كل صعب واستُحِلَّ فيهِ كل امر · فان الشعب الالماني ادَّعى انهُ شعب الله المختار الذي يحقُّ لهُ وحدهُ ان يعيش كما يشاء واذا سمح لغيرهِ ان يعيش معهُ فذلك كرم اخلاق منهُ · وهذا السماح هو السلم · واذا ثارت الحرب حقَّ للمانيا ان تستأصل اعداءها ولا تكتفي بقتل الجنود الذين يحاربونها بل تلحق بهم النساء والعجائز والاطفال وتنهب وتحرق ويكون غرضها الذي تسعى اليهِ ان تخرب البلاد وتفني العباد · هذه هي النتيجة اللازمة عن مذهبها · ولنأتِ الآن الى غرضها والاساس الذي تبني عليهِ

لما كانت الحرب وسيلة للفصل في الخصومات بين الدول كانت محصورة في جنود الدولتين المتحاربتين ثم جعل الناس يبطلون ما لا داعي لهُ ولا فائدة منهُ من الإضرار والتخريب وقضوا ان لا ينالوا غير المحاربين باذًى ونظموا قوانين للحرب جروا عليها · الاَّ ان الجيش الالماني لم ترضهِ هذه القوانين لان غاية الغلبة باية واسطة كانت · ثم لما صارت جنود بروسيا

جنود المانيا الصناعية لم تعد المانيا تكتفي بخضد شوكة عدوها الحربية بل طلبت ايضاً ان تستولي على صناعته وتجارته وثروته ومصادرها وقالت ان لا بدَّ لها من ان تخرب معامله حتى تزول مناظرتهُ لها وان تنهب مدنهُ وتحرقها حتى يفتقر وتفني في بفقره · ويجب ان تكون الحرب قصيرة المدة لكي لا تخسر كثيراً ولان قوتها الحربية ينقصها الشعور بانها على حق وان الحق فوق القوة وهو يقوي اصحابهُ ويجدد قواهم · ولما كانت قوتها الادبية محصورة في الافتقار الناتج من قوتها المادية فهي عرضة لتقلبات الدهر كالقوة المادية فاذا نفدت قوتها المادية نفدت معها قوتها الادبية فلا يحسن ان يبقى سبيل لنفاد هذه القوة بل يجب على الآلة المادية ان تضرب ضربة قاضية دفعةً واحدة وذلك بارعاب السكان وشل اعصاب الامة المعادية · وللوصول الى هذه الغاية ينبغي ان لا يترك شيءٌ يقف في سبيل هذه الآلة ومن ثمَّ قرَّ القرار على ارتكاب كل انواع الفظائع ونظم ذلك تنظيماً متقناً كما نظم الجيش

هذا تعليل ما نراهُ امام عيوننا حتى صرنا نسمع قولهم بربرية علميَّة وبربرية منظمة وبربرية بُنيت على قواعد العمران · ويطرق مسامعنا في كل ما تقدم من تاريخ هذا النظام نغمة الاعتماد على القوة الحربية والمعامل الصناعية والآداب المادية

متى مرَّت القرون ولم يبقَ مما نراهُ الآن الا صورة مجملة فالفيلسوف الناظر الى تاريخنا قد يقول ان القرن التاسع عشر استخدم العلم لتوسيع نطاق الفنون الآلية فجهَّز الانسان في اقل من خمسين سنة بآلات وادوات تزيد على كل ما استعملهُ مدة الوف من السنين السابقة فاستخدم هذه الآلات والادوات كأنها اعضاء جديدة طالت بها اعضاؤهُ وقويت فكبر جسمهُ بها من غير ان تكبر نفسهُ فوقع بينهما اختلاف كبير نتج عنهُ مشاكل كثيرة ادبيَّة واجتماعية وقومية حاولت اكثر الامم حلها وملءَ الفراغ الذي في جسم السياسة بتوسيع نطاق الحرية والاخاء والعدل · وبينما كان الناس يسعون هذا المسعى الروحي الجيد قامت قوى الجحيم وكادت لهم مكيدة جهنمية لانها جعلت الوسائل الميكانيكية التي اعدَّها العلم لخدمة الانسان تمتلك الناس حتى تصير طبيعتهم مادية مثلها · فكيف يصير العالم اذا تسلَّط هذا النظام المادي على نوع الانسان وجعل الناس آلات جامدة متجانسة بدلاً من تدرُّجهم في الارتقاء الحيوي الذي تتفق فيه المتخالفات وتعمل معاً لغرض واحد · وكيف يصير الناس متى انقادوا انقياداً اعمى لكل امر يؤمرون به من آلة صمَّاء تتحكَّم بعقولهم وضمائرهم وتفقدوا المقدرة على التمييز بين الخير والشر بتقدم روح العدل · كيف يصيرون متى قامت القوة الوحشية مقام القوة الادبية · واي توحش يصل اليه الناس متى حدث كل ما تقدَّم وكلَّت النفوس حتى بطل شعورها ·

وماذا يحدث اذا انكفأت قوى الناس الادبية وعادت القهقرى في الساعة التي كادت تصل فيها الى غايتها العظمى وقامت قوة شيطانية جعلت الروح مادية بدلاً من جعل المادة روحية. هنا امة تحاول ذلك فان ملوك بروسيا سلّحوا بروسيا و بروسيا سلّحت المانيا وسار الجميع معاً في نظام آلي حربي توخّى المحالفة مع الصناعة والتجارة حتى اذا تمّت له كان منها قوة هائلة وحينئذٍ تصير اشارة من هذه القوة كافية لجزءٍ ام الارض كلها وجعلها تسير في خطة الالمان وتخضع لاوامرهم وهذا هو المراد بالحرب حينما اقرّت المانيا على اعلانها .

ولقد اقرّت المانيا على الحرب واعلنتها ولكن نتيجتها لم تأتِ كما قدّرت لان القوى الادبية التي اعتقدت انها تخضع للقوى المادية نهضت واثبتت انها هي الموجدة للقوى المادية حتى ان شعباً صغيراً حملهُ شرفهُ على مقاومة امبراطورية كبيرة . ولما اهين العدل نهضت امة اخرى لم تكن تُعنى بغير اسطولها وفي اقل زمن حمل السلاح مليون بل مليونان من رجالها . واعجب من ذلك ان امّة ثالثة كان يُظَن انها منقسمة على نفسها انقساماً يوجب خرابها صار كل ابنائها اخوة في يوم واحد . ومن ثم لم يبقَ ريب في نتيجة هذه الحرب . فترى من الجهة الواحدة قوة ظاهرة سطحية ومن الجهة الاخرى قوة باطنة عميقة . الاولى آلة صماء اصطناعية لا تستطيع ان تصلح نفسها اذا تخرّبت والثانية حياة تتجدّد في كل لحظة . الاولى تزول بالاستعمال والثانية تبقى على الدوام

وسيقول الفيلسوف الناظر في تاريخنا ان تلك الآلة جرت على العمل زمناً طويلاً لا تكلّ ولا تمل ثم كلت ثم التوت ثم انكسرت . نعم انكسرت ولكنها سحقت الجم الغفير من ابنائنا سحقتهم وهم في ريعان الشباب وعنفوان القوة وسيطول بكاؤنا عليهم . ومن السنن المحتومة على الروح ان ترى المادة مقاومة لها وان الرزايا تصيب الاحياء

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى   حتى يراق على جوانبهِ الدمُ

لكن الدم الذي اريق في هذه النوبة كان دماً زكيّا والوجوه التي عفّرت بالتراب كانت عنوان الجمال . فانظر كيف ان القدر المحتوم جمع كل قوى الهلاك وهاجم بها الحياة لكي تكون المعركة نهائية فاصلة . فغُلب الموت ونجا نوع الانسان برزيئة مادية من السقوط الادبي الذي لو حلَّ به لقضى عليهِ قضاء ابديًّا. فتهلل الناس في محنتهم وتغنوا بنشيد الشكر لانهم نجوا من الخراب والاضمحلال